يوم ماراثون

لحضرة المؤرخ المحقق جرجي افندي بك الطرابلسي

لقد مرَّ على الشرق حين من الدهر وهو متمتع بالدولة والسيادة تعتزُّ به الدولة اثر الدولة فتنهض بالعزة الشماء والهمة القعساء حتى تدين لها اخواتها وحتى تخفق على ارجاء اسيا الفسيحة اعلامها وتنفذ في ساكنها احكامها. وحسبك ما كان من شأن الدولة الكلدانية والاشورية والبابلية والفارسية فانهن جُمِعْنَ لعين في مرتع الوجود ادوارًا وكان لكلٍّ منهنَّ في زمانها ومكانها منتهى القوة وغاية المنعة والسيادة حتى كانت تُجبى لهنَّ الاموال من اقطار اسيا الشاسعة. فلما انتهى الدور في القرن السادس قبل المسيح الى الدولة الفارسية الثانية التي يسميها العرب الكيانية وقد ورثت عن سابقاتها الفخامة والمجد بدأت ترقى في معارج الفلاح والازدهاء حتى اتسع نطاقها واي اتساع واربت سعة فتوحاتها ببغًا وخمسين مرة على منبت اصلتها اريد بها بلاد فارس الاصلية. وكأني بملوك هذه الدولة قد نظروا الى العالم المعروف يومئذٍ فرأوا رايتهم تخفق فوق كثير من اقطاره في اسيا وافريقية فذكروا ان بين الخاضعين لهم اقوامًا دانت لهيبتهم الممالك القديمة ورجالاً اشتهرت بسالتهم وعُرف بين الناس مقام شجاعتهم فدبّت خمرة هذا الفوز العظيم برؤوس ملوك الفرس وايقنوا ان ليس لهم كفوء بين امم الارض

وكان على ساحل الاناضول الغربي مدائن عامرة بجالية من اليونان اقاموا ثمة مستقلين في شؤونهم. الاَّ ان ازدهاء مملكة ليديا وتفوق ملكها كروسوس لم يبقِ لها من شأن عظيم فانصاعت بعضها لطاعته والبعض لمالاَتِه حتى اذا نهض قورش رأس الدولة الفارسية واقتحم مملكة مادي وقع من فعلته ما ساء كروسوس لما بينهما من المحالفة والمصاهرة فصمم قورش على خفد شوكة الليديين واراد ان يستعين عليهم بالمدن اليونانية الخاضعة لهم ولو خضوعًا اسميًا لعلمه ان كروسوس لا يقعد عن الزحف لتدويخهم فيقع منهُ ومنهم بين نارين. الاَّ ان اولئك اليونان لم يحفلوا بدسائس قورش اما لارتضائهم من الليديين او خشية ان يكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار. فكانت فعلتهم قذًى في عيون قورش الظافر بكروسوس وقومه حتى اذا قفى من الفتح وطارهُ عنت لهُ كل بلاد ليديا وتوابعها وفي جملتها هاتيك المدن اليونانية. ومع ذلك فانهُ لم يكتفِ بما كان من طاعتها الظاهرة بل اخمر لها الشر ولكنهُ قفل عن سرديس المفتوحة ليثير الحرب في مواطن اخرى بعد اذ عهد بما غنم من الاموال البطائلة الى رجل من الليديين اسمهُ باكتياس ليوصلها الى عاصمته. فما عتم الليديّ هذا ان استأجر بالمال عسكرًا من اليونان وعاد به وبمن

التفّ حوله من الوطنيين الى سرديس ودسّ لاهليها فنهضوا بالعامل الفارسي طابالوس وغلبوه عليها فحصر قلعتها وطيّر الخبر الى مولاه فلم يحفل بالثورة كثيراً بل عقد اللواء لمادي من بطانته يقال له مازارس وبعثه لجمع جماح العصاة ومن ناصرهم من اليونان فما علم باكتياس بالامر خاف المغبّة ففرّ هارباً قبل ان يلمّ به فيالق الفرس فخمدت جذوة الثورة ولكن مازارس اقتصّ من اهل سرديس ونكل بهم وزحف على المدن اليونانية وهاجمها فتح بريانة وباع اهليها عبيداً واراد الحملة منها على اخواتها فعاجلته المنية وعقد لواءه جيشو لمادي آخر اساتذة هرباغوس فضرب المدن اليونانية وفتحها الواحدة بعد الاخرى لكنه لم يجنف على اهليها بل عاملهم بالرفق اكثر من سلفيه اذ ارتضى من بعضهم بمغادرة الثغور والإبحار الى الجزائر القريبة ومن غيرهم بالطاعة والجزية والخدمة العسكرية فسرّ اليونان بشروطه وارتضوا لكن قورش لم يرتض من المدن اليونانية الاّ ملتيوس (ملاطية) فانهُ عاملها بملء الرأفة كأنهُ قصد ان يستخصها بالنعمة ليبقى على الاخلاص لعرشه فتفترق بذلك عن اخواتها اللواتي اقسّ على استقلالهنّ الداخلي لا يرغبن في الاتحاد ولا يخضعن لسيادة واحدة منهن يجتمعن على امرها في تدبّر المصلحة العامة كما اشار بذلك حكيمهم طاليس المشهور الذي رأى بفراسته ان الفرس يريدون بمواطنيه شرًّا فاراد ان يجمعهم فما انصاعوا لمشورته

وكان قد تخالف عن طاعة الفرس منذ بدء انتصاراتهم في اسيا الصغرى بضعة قبائل ساكنة في الجنوب الغربي وبينهم كثيرون من جالية اليونان فزحف هرباغوس عليهم واجتاح بلادهم فاذعنوا من غير ممانعة تذكر الاّ الكونيون والليقيّون فانهم اتحدوا وحاربوا حرباً ترتعد الفرائص لهولها حتى اذا غُلبوا اعتصموا في معاقلهم لكنها لم تغنهم عن بأس الفرس قليلاً فاضرموا النار في مدينتهم فاحترقت بمن فيها من نسائهم واولادهم وما يملكون ثم اختطروا السيوف وحملوا على الفرس يريدون ان تُهب ارواحهم على شفارهم فكان لهم ما ارادوا وتخلد اسمهم بالبسالة النادرة المثال

هذه جذوة الحرب الفارسية اليونانية القاها تماسّ مصالح الامتين بينهما الاّ ان الجالية اليونانية في ثغور اسيا وبعض مواضع من داخليتها ليست كل الامة اليونانية ولا هي بضعة منها ولكن مواطن شراذم من تلك الامة العظيمة نزلوا بعيداً عنها ابتغاء التوسع في الرزق والتماساً الانتشار كما نرى لهذا العهد كثيرين من ابناء الامم المتمدنة يجوبون الامصار لاختيار اطايبها واتخاذها لهم منازل يستدرون منها خيراً لم يجدوهُ في امكنتهم الاولى . ولم يكن عدد اليونان كبيراً ولا نهضت فيهم لذلك العهد دولة واحدة تجمع شتاتهم بل ظلوا الآماد الطوال

يرحبون في استقلالهم الداخلي منقسمين بلدانًا وحلفات شأنهم التباعد والتخاصم بل التفاني في ميادين القتال وانما كانت فيهم الفضائل الباهرة من حكمة تضرب بها الامثال وشجاعة قلّ لها المثيل وآداب عزيزة المنال في تلك الايام ووطنية لا يعادلها شيء وذكاء عجيب الى غير ذلك مما دلت عليه آثارهم

ولقد روى ابو التاريخ هيرودوتس بعضًا من الحوادث التي وقعت بين الفرس واليونان في يده ملك داريوس بن هستاسبس او قبله مما حسبها بعضهم ذريعة للعدوان ولكنها على الارجح اذا صحت ليست مما يدفع الى الحرب اللهمّ الاّ اذا كانت الصدور قد ضاقت بالشحناء والتمست لها منفذًا . اعتبر ذلك بما كان من احتيال اوراوتس عامل الفرس على بوليكراتس اليوناني صاحب جزيرة ساموس وقتله واستعباد رجاله وبينهم الطبيب ديموسيدس الذي شفى داريوس من صدع رجله فارسلهُ في جملة الجواسيس الى بلاد اليونان وهنالك انقذهُ اهل كروتونا الى غير ذلك مما لا نطيلهُ يستثير الامم فلى خوض غمرات القتال

الاّ ان السبب الاقوى هو ان داريوس علم بغنى اليونانية وبعدها فطمحت عينهُ الى خفض شوكتها لان عزتها لم تقع منهُ موقعًا جليلاً لما في مجاورة دولتهِ لها من خفض غلوائهِ لاسيما وان بعض الخاضعين لسدتهِ من جالية اليونان في اسيا كانوا يعتزون باباء اروميتهم ويحسبونهم ملجأً لهم متى اشتدت بهم الازمة ناهيك ما روي من استنجادهم باسبرطة احدى مدنهم المشهورة باستقلالها وبسالتها ايام اراد فورش بهم شرًّا وان اسبرطة أجابتهم واوقدت على الظافر رسلها يحملون بلاغًا لم يرضهِ ولا عروَ فقد كان اليونان على جانب عظيم من العجب والخيلاء حتى انهم ليحسبون انفسهم اعلى الناس قدرًا واسمى من سواهم برابرة وكذا كان الفرس يشعرون بانفسهم اعتلاء على الناس لاسيما لما التفت اليهم السيادة واستقل امرهم في السواد الاعظم من سكان اسيا

ومع ان الفرس لم يحفلوا بمداخلة اسبرطة ازدراء بها فان فعلتها القت بذار الشر في نفوس ملوكهم وانتها لبداية شؤمى توالت الحوادث على صغار امورها فصارت جسامًا . ولقد كانوا ينظرون الى اليونانية بعيون الحسد والضغن يريدونها من جملة التوابع ويقابلهم اليونان بالحرص على بقاء حريتهم والامتعاض ممن يريد بها سوءًا . واخلاقُ الامتين في خلال ذلك تزيد في طين الحوادث بلةً الى ان بعث داريوس وفودًا من قومهِ الى اليونان في اسيا واوربا يطلبون اليهم ان يقدموا لهُ الماء والتراب لانهما علامة الخضوع والطاعة فلقي الوفود قبولاً في كل المستعمرات اليونانية وفي بعض المواطن من امّ البلاد الاّ اثينا واسبرطة فانهما اجابتا الوفد جوابًا قبيحًا واهانتاهم

لحق داريوس لازدراء القوم به مع انهُ يحسبهم احط من ان يخطروا على بالهِ

وكان جيشهُ كثير العدد وقد جمعت فيهِ الرجال من كل انحاء اسيا الخاضعة للصولجان الفارسي فسار تسبقهُ الابهة والمهابة والجلال التي كسبها في الحروب والمغازي السابقة حين دوَّخ الاقطار وما زال يغذ السير حتى نزل في صيف سنة اربعمائة وتسعين قبل المسيح في سهل فسيح قرب البحر في بلاد كليكية يقال لهُ سهل الية حيثما كانت قد اجتمعت السفن التي هيأها تباع الفرس من الفينيقيين وجالية اليونان في الثغور والجزر وقد ناف عددها على الستمائة عدا عن عددٍ من الشحالات التي امر داريوس بطلبها من جالية اليونان وسراهم لنقل خيولهِ ومعداتهِ حتى اذا تمت الاهبة ركب الجيش البحر مزوِّداً بأوامر المولى ان يدوخ اليونانية وعلى الاخص جمهورية اثينا وبلدة اريتريا وان يبعث باهاليهما اسارى الى فارس. فمخرت السفن العباب على محاذاة سواحل الاناضول حتى اقتربت من جزيرة ساموس فتجاوزتها وسارت مغربة في بحر ايجه تدوخ الجزائر التي تمرّ بها وكان الناكسيون قد ناوأوا الفرس منذ عشر سنوات فلما حصرهم الاسطول يومئذٍ لم يقوَ عليهم لكنهم لما اقبلت هذه الحملة خافوا واعتصموا بجبالهم فانزل الفرس رجالاً الى مدينتهم فاحرقوها وعاثوا في جوارها ولم ينفكوا عن القوم حتى اذعنوا لنصرتهم بالرجال والسفن. ثم اقلع الاسطول حذاء اوايا حتى اتى بلدة صغيرة اسمها كاريستوس فمانعت بعض الشيء ولكن هي الكثرة قد تغلب البسالة. فلما ظفر الفرس بكاريستوس اتجهوا صوب اريتريا فبعث اهلها يستغيثون بحلفائهم الاثينيين فلباهم هؤلاء اذ ارسلوا اليهم اربعة آلاف من رجالهم الابطال فبلغوا المدينة وتأهبوا لمحاربة العدو الاَّ ان دار الندوة الاريترية لم يكن سليماً من الخيانة العيبة لان بعضاً من رجالهِ كانوا حراصاً على ذواتهم وما تملك ايمانهم يحسبون المغنم البارد في تمكين العدو من بلادهم وقومهم ليسلم لهم شأنهم. الاَّ ان سائر مواطنيهم كانوا ابطالاً يفضلون الموت في ساحة الوغى على التسليم للعدو اللدود ولذلك عزموا على الحرب وعزم الخونة الانذال على الغدر بهم وتسليك وطنهم للفرس واتصل ذلك برجل من عظماء البلدة يقال لهُ استيس فكبر الامر عليهِ ولم يرضَ ان يؤخذ الاثينيون على غرة فاوعز اليهم ان ينجوا من مخالب الخيانة ليقتدروا على الدفاع في وطنهم. فلما سمع الاثينيون ذلك برحوا البلدة تاركين دفاعها لرجالها وجاء العدو فوقف الاريتريون في وجوههم ستة ايام وفي اليوم السابع سلم الخونة المدينة فاسرف الفرس فيها قتلاً ونهباً وحرقاً واخذوا رجالها اسارى واقاموا في جزيرة تجاور اريتريا اسمها اجيليا حتى يقرنوهم لمن وطدوا العزم على اسرهم من الاثينيين فيواخذ الاسرى بعد ذلك الى حضرة المولى الفارسي ليفعل فيهم ما يشاء

ولما قضى الفرس لبانتهم من اريتريا اقاموا ثمة بضعة ايام ريثما استراحوا من وعثاء السفر والحرب وساروا نحو بلاد اتيكا وعاصمتها اثينا يحسبون انهم لا يلبثون ان يظفروا بها كما ظفروا بسواها. وكان يدبر هيبياس بن بسستراتوس حاكم اثينا المطرود فدلهم على سهل ماراثون وهو على اثنين وعشرين ميلاً عن اثينا وموقعهُ قرب خليج باسمهِ وذلك في الساحل الشمالي الشرقي من اتيكا. اما شكلهُ فهلالي ويبلغ طولهُ ستة اميال وعرضهُ في وسطهِ نحو ميلين ولكنهُ يضيق في الطرفين تدريجاً حتى تقترب الجبال من البحر. وفي وسط السهل واد عميق يجري فيهِ سيل ماء وعلى جانبيهِ اشجار غياض ونجوم نبات زكي الرائحة يعطر تلك الارجاء وكان الى جانبي السهل ارض سبخة تغمرها المياه في الخريف والشتاء وتجف عنها في الربيع والصيف — هنالك بين السبختين خيم الفارسي بخيلهِ ورجلهِ وامامهُ في البحر رست السفن والنقالات تجندهُ بالذخائر والمؤن

وكانت عدة الجيش الفارسي مئتي الف وقيل مئة الف من الفرسان والرجالة واما عدد الاثينيين فقليل لا يكاد يبلغ العشرة آلاف من المقاتلة الاَّ ان عادة هؤلاء ان يصطحب الجندي خادماً او اصيراً من عبدانهِ او من الوطنيين الفقراء الذين لم يكونوا على سعةٍ من العيش تمكنهم من تعلُّم فنون الحرب او من ابتياع العدَّة اللازمة للقتال

اما سلاح الفرس فكان حساماً قصيراً مستقيماً اشبه شيء بالمدى يضعونهُ في الغمد و يعلقونهُ بالمنطقة الى الامام ثم يعتقلون رمحاً قصيراً ايضاً لا يتجاوز طولهُ ست اقدام ولكنهُ حديد السنان وكانت قسيهم كبيرة الحجم متينة تعلق على الكتف الايسر واطرافها عكفاء اما سهامها فمن القصب الاَّ ان نصالها من الصفر او من الحديد يضعونها في جعاب تعلق في الكتف الايسر ايضاً وتدلى الى الوراء. ومن سلاحهم ايضاً الفأس والمقلاع والمدى والخوذة على فلقٍ وكانوا لا يدَّرعون بل يتقون الضربات بجانٍّ من القصب. اما اليونان فقد كان سلاحهم السيف القصير ولكن رمحهم كان طويلاً يبلغ عشر اقدام او اثني عشرة قدماً وكانوا يتقون الضربات بالجان ويلبسون الخوذ والدروع

ولما علم الاثينيون بنزول الفرس في ماراثون اسرعوا الكرة من مدينتهم اليها ونزلوا في الجبال المحيطة بالسهل في موضع كانوا يعتبرونهُ مقدساً لهرقل البطل المتأله وكانوا قد بعثوا يستنجدون باسبرطة و يطلبون اليها ان تدعم يد المعونة للذود عن الوطن ودفع العدو الخارجي الذي جاءهم يريد بهم سوءاً. فاجابتهم الى ذلك الاَّ انها اعتذرت اليهم عن المسارعة في نصرتهم على العدو لان الاستغاثة بهم وصلتهم في اليوم التاسع من الشهر القمري وان من

سلمهم المنيعة وعقيدتهم التي لا يحولون عنها ان لا يسيروا في زحف الاَّ بعد ان يصير القمر بدرًا ولذلك باشروا الاهبة ليسيروا الى القتال متى حان الوقت. فتلقى الاثينيون هذا الوعد على الارتضاء ولئن وجدوا من انفسهم انفرادًا في الذود عن الوطن تلقاء جيوش جرارة تسير مهابتها في طليعتها

وكانت عشائر الاثينيين عشرًا ومن عادتهم ان يزحفوا للحرب وعلى كل عشيرة قائد يختارونه كل سنة ومتى قصدوا حربًا يجتمعون للمذاكرة فيه مشاركين زعماً من كبراء حكومتهم منصبهُ كوزارة الحرب لهذا العهد. فلما نزلت العشرة الآلاف من الاثينيين على جبال ماراثون رأوا السهل يموج بالجيوش من فرسان ورجالة وابصروا الابهة الفارسية باكمل مظاهرها وعلموا ان قد دنت الساعة التي بها يدافعون جيشًا اعتاد خوض الحروب وخرج من جميعها ظافرًا غانمًا حتى اصبح الاسم الفارسي رهبًا ورعبًا لليونان

وكان في اليونانية بلدة غير ذات جسامة اسمها بلاتيا واقعة في قطر بلاتيا على مقربة من ثابس المشهورة بحولها وطولها فناوأتها هذه الجارة القادرة بحيث كادت بلاتيا تعجز عنها فاستغاثت باثينا فاغاثتها وانقذت لها استقلالها من مخالب الاسد. فحفظ البلاتيون لاثينا هذه الصنيعة حتى دُهمت ببلاء الفرس فشدوا الفًا من الابطال المدربين على القتال وارسلوهم الى ساحة الوغى فباغوا ماراثون لنجدة مصطنعيهم من غير ان يستنجدوهم فوقع ذلك من الاثينيين موقعًا جليلاً لاسيما لانهم جاؤا لنصرتهم من دون سائر اليونان مع ان الفرس كانوا يتوعدون استقلالهم جمع وثمروا ان لهم نصراء يستميتون مثلهم في التماس الحرية والذود عن الذمار

ولنا على بينة من اسماء القادة العشرة الذين كان معقودًا لهم على الاثينيين في تلك الحرب واغا نعرف ملتيادس المشهور واريستيدس وثيموستكلس اللذين ذاع صيتهما بالبسالة وكان لهما القدح المعلّى في شؤون وطنهما بعد تلك الاونة وكذلك القائد ستاسيلاوس ابن تراسيلاس

ولما عقد القادة مجلسهم دارت المذاكرة بينهم في اضرام جذوة الحرب فرأى بعضهم ان لا قبل لهم بمقاتلة ابطال الفرس الذين اعتادوا خوض الغمرات وقد خرجوا من جميعها ظافرين حتى حسبوا اقوى من ان يغلبوا. ورأى الاخرون ان يقابلوا العدو من غير مهل وكان ملتيادس من جملة القادة الخمسة الذين ارتأوا الاسراع في الحملة على العدو غير متهيب عددهم وعددهم لما كان يعلم من تفوّق اليونان في البسالة والدربة وان باب الظفر مفتوح لقومه اذا لم يعوزهم حسن القيادة. وكان واثقًا بنفسه ورجاله وبحسن موقع جيشه ويخشى ان يصير للاسبرطيين فيعمل

الخولة في اثينا ما عمل امثالهم في اريتريا. فلما اتمت آراء القادة العشرة ولم يبقَ الا رأي وزير الحرب خاطبهُ ملتيادس قائلاً: اي كليا كوس لقد وقع الامر اليك فاما انك تسعد اثينا او اذا شئت ان توثق عرى حريتها تخلد لك شهرة ذائعة لم ينل مثلها هرموذيوس واريستوجيتون لانهُ لم يأت على الاثينيين منذ صاروا شعباً حين من الدهر وقعوا فيهِ بمثل هذا الخطر فاذا احنوا ركبهم لهؤلاء الفرس ينعم بهم على هيبياس وانك لتعلم ماذا يحلُّ بهم عندئذٍ ولكن اذا انتصرت اثينا في هذه الحرب فانها ستصبح الاولى بين المدائن اليونانية فرأيك اذن قاطعٌ لعدال الامر بين ان نحارب او لا لاننا اذا لم نباشر القتال سريعاً قرب جماعة من الاثنذال يدسون الاثينيين سم الشقاق وتسلم المدينة للعدو ولكننا اذا شمرنا للحرب قبل ان تظهر خفايا الخبائث في اثينا فاني واثق بالظفر ما لم تكن الالهة متحيزة علينا. انتهى بتصرف. فلما سمع كليا كوس هذا الكلام مال الى رأي ملتيادس فوافقهُ المجلس على ذلك وسر القادة بحماسة الشجاع وارادوا ان يسلموهُ حظهم من الامارة العامة ذلك لانهُ كان من سنتهم ان يتناوب القادةُ العشرة الامارةَ العامة يوماً فيوماً فابى ملتيادس ان يتولاها في غير يومهِ لئلا يستثير حسد رفاقهِ وصبر حتى جاءت نوبتهُ. على ان الغريب تقاعد الفرس عن النزال فكأنهم انصاعوا لمشورة هيبياس الخائن الذي اتخذ عدو وطنهِ ذريعةً لنيل عرشهِ المسلوب وسعى في اغراء قومهِ على الخيانة ليسلموا المدينة من غير قتال

ولما جاءت نوبة ملتيادس في الامارة العامة كان ذلك في يوم من شهر سبتمبر (ايلول) سنة ٤٩٠ ق.م فنظم الجيش على ان يكون كليا كوس قائداً لليمنة ولا خفاء ان لوزير الحرب في كل المواقع الاثينية ان يتولى قيادة الجيد ويلي ثيوستوكلس واريستيدس في القلب وسائر القادة في المواقف الاخرى اما الحلفاء البلاتيون فني الميسرة القصوى وكان كل هذا الجيش من ذوي الاسلحة الثقيلة لان الاثينيين لم يكونوا حتى يومئذٍ يستخدمون ذوي الاسلحة الخفيفة في المواقع الحامية الا عبدانهم فانهم لم يكونوا يحسبون من المقاتلة وقد يبعثون مع مماثليهم من المسلحين قليلاً للمناوشات ومطاردة العدو اذا ادبر

ولما اكتمل الانتظام بعد ظهر ذلك النهار شرع القادة يخاطبون عسكرهم بما يزيدهم حماسة ويستثيرون من شجاعتهم وهم في خلال ذلك يذكرونهم بمواضع جمة من مواقفهم فيها الذكرى لايام مضت كسالة بطلهم المتأله هرقل المخصص موضعهم لذكره تاهيك باليانبوع الذي في جواره فانهُ ينسب الى احدى النساء الباسلات المسماة مكاريا التي يحكون انها بموتها فدت حرية قومها واشاروا الى السهل الذي عزموا على الاقتتال فيهِ انهُ كان الساحة التي استبسل فيها

بطلهم الوطني ثاسيوس وفيه اتحد اجدادهم والهراكليدة فغلبوا لوريساثيوس الذي اجتاح بلادهم. وبمثل هذه الذكرى تعلو النفوس وينلو مرجل الحماسة حتى يستخف الموت فدى الوطن. واذ كان الاثينيون يعتقدون بصحة هاتيك الوقائع وان ابطالهم المذكورين عملوا في ذلك الموضع تلك الاعمال المجيدة ثم اذ اصبحوا على ما كانوا يزعمون بين القوات العلوية فانهم ينظرون الى اوطانهم بملء المسرة والارتياح فيسعون لدى الارباب العظام وينالون للمخلصين في خدمة الوطن نظراً عزيزاً وظفراً اكيداً

وكان من عادة الاثينيين انهم اذا برزوا للقتال ألفوا مربعاً كثيف الجوانب تصونهُ المجان اذا تدانت واشتبكت يقال لهُ عندهم فالانكس ثم ساروا الى اللقاء بتقدم راسخ متمهل الاَّ ان ملتيادس رأى ان يغير الخطة المألوفة تغييراً كلياً لجعل مصاف عسكرهِ طويلاً على مدى كل الموقف الذي يحسن النزال فيهِ خشية ان يؤخذ جيشهُ من على جانبيهِ بحركات فرسان العدو الاَّ ان قلة عسكرهِ وامتداد مصافهِ جعل الخط ضعيفاً على مداهُ فقوى الجناحين بشرادم من القلب لان موضع القلب يمكنهُ من الاستنصار اذا ضعف باحد الجناحين فتكون العمدة عليهما وتلك خطة لم يألفها القوم من قبل ولكن ايمنداس اخذها عن ملتيادس بعد نحو مئة سنة من زمنهِ

ولما قرع الطبل وتغنى المنشدون بانشودة الحرب اندفع الاثينيون خفافاً سراعاً يخدرون من على الجبال كأنهم السيل اذا انحدر على غير عادتهم ثم شرعوا يركضون ركضاً ولا خوف عليهم ان يصلوا الى موضع المصاف وهم منهوكون اعياء وتعباً لانهم مدربون على السير ركضاً وانما امرهم ملتيادس بذلك لئلاَّ يراهم الفرس فيستعد فوارسهم للقائهم قبل ان يتجاوزوا الحضيض البعيد نحواً من ميل عن موقف العدو ولكي اذا دنوا منهم لا يحكم رماة الفرس بصرد السهام عليهم ريثما تتألب فيالقهم وتصافهم

قلنا ان موقف الاثينيين كان قنة الجبل فهم لذلك لم يكونوا على مرأى من الفرس بحيث خفيت عن هؤلاء حركاتهم بخلاف حركات الفرس فانها كانت ظاهرة لاعدائهم فلما برز اليونان من مواقفهم وشرعوا ينزلون من الجبل ركضاً هزأ الفرس بهم لقلة عديدهم وخلو جندهم من الفرسان والرماة ولانهم يركضون كالمجانين واستهانوا بهم. وحسبوا انهم آخذوهم على شفار الصفاح واسنة الرماح وبدأوا يرتبون صفهم جيد الطاقة على ما فسح لهم المكان والزمان فترتبت المشاة وفيهم من الفرس كل بطل مغوار اعتاد خوض المنايا والخروج منها غانماً ظافراً اما الفرسان فاعوزهم الوقت لتمام الاهبة

ووقف المشاة يترقبون حملة اليونان فما عتموا ان جاؤوهم بقلوب لا تهاب الموت وقد شرعوا الاسنة وحملوا حملة الاسود الكاسرة فالتقاهم الفرس بثبات وعزيمة تتقلقلان الجبال الا ان مجانهم لم تكن متينة لتقيهم من طعنات اعدائهم ولا كانت رماحهم طويلة لتبلغ من اليونان ما بلغت رماح اليونان منهم فقتل من الفرس كثيرون بل ربما ذهب الصف الاول منذ الصدمة الاولى ولكن ذلك لم يبلبل للفرس بالاً ولا شغل خاطراً لان بعضاً منهم اظهروا منتهى البسالة والاقدام ناهيك ان كثرتهم كانت كافية لسد العوز حتى كلما مات منهم محارب برز الى الساحة محاربون وكان في قلب جيشهم الكثيف رجال الفرس الوطنيين وناهيك ببسالة من يقاتل عن امته وسيادتها فان هؤلاء ابلوا في ذلك اليوم البلاء الحسن يتجدهم فيه جيش الساكة ولم يكن امامهم من اليونان عدد كاف يشد به الازر فتثبت منالك الشراذم التي كان على امرتها اريستيدس وثيموستكلس وارتدت على الاعقاب امام الفرس فلحق هؤلاء بهم في عرض السهل والى اعالي الوادي وما وراءه من داخلية البلاد حيث الحزون التي اغتنم اليونان فرصة سنحت لهم من تلكإ الفرس عن سرعة مطاردتهم فيها فتألبوا وعادوا ثمة لتجديد القتال وكان الجناحان اليونانيان قد كسرا الفرس من صوبهما وارجعاهم القهقرى فلم يرَ ملتيادس ومن تحت امرته من قادة الاثينيين والبلاتيين ان يطاردوا المنهزمين بل ضموا جيوشهما معاً وسار ملتيادس بهم لمقاتلة قلب الجيش الفارسي وهو يقاتل اليونان المرتدين من امامه فلما رأى الفرس حملة ملتيادس عليهم اسقطوا في ايديهم لانهم لم ينتظروا منهم مثل ذلك وانكفأوا عن قتال ثيموستكلس وارستيدس لمقابلة الآتين عليهم فتشدد هذان القائدان وعادت حمية عسكرها فاطبق كل اليونان على فيلق الفرس والساكة فجاهد هؤلاء جهاد الابطال ولكنهم لم يقووا على الثبات طويلاً ولاسيما لان الليل كان وشيكاً وان صف اليونان كان محكماً مستتراً بالجان والرماح شرّع نحو صدور الاعداء فهم لا يستطيعون ان يدنوا من حملتها ليخترقوا صفوفهم قبل ان تخترق تلك الرماح صدورهم وتخطف ارواحهم ناهيك انهم والوقت ما برح قبل الغروب قد وقفوا بين مصافهم واليونان فاستهدفوا لسهام الرماة الذين ارادوا العدو فاصابوا الفرس. كل هذا والحرب لم تزل محتدمة مع ان اليونان تعبوا كثيراً ولكنهم رأوا فتكهم بالفرس ذريعاً وان نصرهم صار وشيكاً فزادوا حماسة واقداماً كلما زاد عدوهم وهناً وتقى الفرس لم يدنون من مربع الاعداء ويعملون فيهم الخناجر والمدى اذن لاذاقوهم نكالاً

وفي آخر الامر شعر الفرس بضعفهم وانهم اذا دهمهم الليل زادهم بلاء فادباروا ظهورهم للاعداء وولوا هاربين لا يلوون على شيء ولحق اليونان بهم على الاثر يضربون في اقفيتهم حتى

عمت الهزيمة وكبرت رزيئة الفرس ولم ينجهم من الموت الاَّ الفرار نحو البحر فبلغوهُ وركبوا سفنهم وولوا الإدبار الاَّ ان اليونان كانوا قد سكروا من خمرة الظفر فاندفعوا الى السفن الراسية قرب الشاطئ وقبضوا على بعض منها ودوت الارجاء باصوات القائلين منهم هلمَّ بالنار هلمَّ بالنار فدافع ثمة الفرس دفاع المستميتين ورأوا النجاة في صبرهم على المكاره حتى قتلوا من اليونان معظم من قُتل في ذلك اليوم وفيهم القائد الباسل كاليماكوس وزير الحرب وكذلك ستاسيلاوس وفاز الفرس بالنجاة من مخالب الاسد اليوناني بعد ان اصرعة من صفنهم

ولما اقلعت السفن من مياه ماراثون خطر لدارشن امير الفرس ان يحرز على مجاذاة ساحل اتيكا الغربي حتى يصل اثينا فيجدها خالية من حاميتها فينال اربهُ منها بمسعى الذين فيها من انصار هيبياس الاَّ ان ملتيادس رأى ذلك فاعمل على احباط مسعيهِ ولو كلَّف عسكرهُ مالا يُطاق من التعب فعهد لاريستيدس ان يقوم بفرقتهِ على حراسة ساحة ماراثون وما فيها من القتلى والجرحى والسلب وزحف في ذلك الليل بسائر الجيش الظافر زحفاً سريعاً حتى بلغ اثينا اما سفن الفرس فانها دارت حول رأس سونيوم وخرت صوب الميناء في صباح اليوم التالي فرفع اميرها نظرهُ ورأى الظافرين بهِ في مساء الامس صفاً كالبنيان المرصوص فعلم ان امالهُ قد خابت وان مساعيهُ حبطت لان المستعدين للقائهِ ذوداً عن بلدتهم هم الذين اذاقوا عسكرهُ كؤوس الوبال وقد تركوا خوفهم مؤثراً في قلوب ابطالهِ ناهيك انهم لظافرون والظافر يزداد بسالةً واقداماً كلما ازداد تذكاراً لنصره رأى وعلم فاطَّرح امر مولاهُ داريوس ظهريا وقال في نفسهِ (الهرب ثلثا المراجلة) فامر بسفنهِ فاقلعت راجعةً الى اسيا تاركةً اوربا وشأنها

قلنا ان الاسبرطيين وعدوا الاثينيين بالنجدة بعد تمام القمر فلما بدر وقضوا ليالة سنتهم الدينية زحف منهم الفان من الرماحة الابطال الى ماراثون وهي تبعد عنهم مئة وخمسين ميلاً اجتازوها في ثلاثة ايام فوصلوا الموقف وقد وضعت الحرب اوزارها وسار معظم الاثينيين للذود عن بلدتهم ووجد الاسبرطيون ساحة الوغى ملأى باشلاء الفرس وتياعهم فاعظموا الامر واكبروهُ ثم اثنوا الثناء المستطاب على بسالة الاثينيين وابلائهم بالعدو البلاء الحسن وعادوا الى قومهم ليحدثوهم بما كان من الظفر وغرائب البسالة الاثينية

وكانت عدة قتلى الفرس وتباعهم ستة الاف واربعمائة اما الاثينيون فلم يُقتل منهم الاَّ مئة واثنان وتسعون رجلاً ولم يذكر عدد من قتل من البلاتيين الاَّ ان بعضاً من المحققين لا يحسبون خسارتهم فادحةً لان موقفهم كان منيعاً بحيث قلَّ ان تطالهُ رماح العدو

ولا خفاء انهُ كان من عادة الاثينيين ان يحملوا اشلاء قتلى حروبهم الى اثينا ويدفنوهم

بالتعظيم في مدفن ابطالهم الواقع في ضاحية اثينا في موضع يقال له سيراميكوس الا انهم ارادوا في هذه المرة ان يميزوا قتلى ماراثون عن سائر من سيقهم من الابطال ليظهروا لابناء وطنهم تفوق هؤلاء المدافعين عن ذمارهم فاحتفروا لهم في ساحة ماراثون ضريحاً كبيراً دفنوهم فيه وجعلوا فوقهم رجمة من الحجارة واقاموا حولها عشرة من الاعمدة لكل من عشائر اثينا واحد كتبوا عليه اسماء قتلى تلك العشيرة في ذلك اليوم المجيد . ومما يؤخذ عن بوزنياس الذي نبغ بعد ستمائة سنة من هذه المعركة ان تلك العمد ظلت قائمة في مواضعها حتى زمنه . وجعلوا للقتلى البلاتيين ضريحاً اخر واقاموا عليه رجمة اخرى وكذلك احتفروا ضريحاً مخصوصاً لعبدان الاثينيين الذين كانت شكنهم خفيفة وقتلوا في ساحة الحرب

هذا ما روى المؤرخون عن يوم ماراثون المحسوب منتهى مجد الاثينيين وغاية فخارهم على ان الباحث المصري مطالب بكشف النقاب عن الاسباب التي كانت هام الاثيني بغبار الانتصار واذاقت الفارسي صاب الهزيمة وليس ذلك بعسير على من يمم نظره في التاريخ اذ يرى اولاً ان الدولة الفارسية كانت طامحة الى الفتوح راغبة في مزيد قدرتها بخضد شوكة من تستطيع اليه وصولاً من الامم فكان ابطالها يحرزون النصر اينما ساروا لتفوقهم على من يحاربون عدداً وعدداً ولكنهم لما لاقوا اليونان قاتلوهم فوجدوهم اسوداً في اللقاء لا يضارعهم احد من محاربيهم السابقين . ثانياً لم يكن كل الجيش الفارسي على كثافته من اهل عصبية الدولة بل ان معظم تلك الالوف المؤلفة كان من اتباع الذين حاربوا مأمورين لا تدفعهم الحمية ولا تنهضهم الواجبات الا فئة الفرس الذين كانوا في القلب وفازوا في بادىء امرهم ببعض الشيء وشتان بينهم وبين الاثينيين الذين حاربوا ليفتدوا انفسهم وعيالهم من الاسر والهوان ولكي يذودوا عن اوطانهم وما ملكت ايمانهم طائلة السلب والنهب والحريق مما كان مباحاً للظافر في تلك الايام . ثالثاً كان الجيش الفارسي اذا ارتد يرى وراءه السفن لتعود به الى اوطانه يرى فيها عياله آمنين ويتم منها مخبرها متخلصاً من مشاق الحرب المكلف بها تكليفاً بخلاف الاثيني فانه كان عارفاً ان انكساره يلبسه ما لا يطاق من الاسر والنكال وهو لا يسلم من عذاب الهون الا ليبتلى بالجلاء عن وطنه على اقل ما يحسب له مخبوءاً في فكرة الظافر . رابعاً كان الاثيني مولعاً بالحرية ممقتاً من جرائها بتميم الحضارة يرى كل شيء سفي وطنه ثميناً غالياً يفتدى بالارواح بخلاف اتباع الفرس فانهم كانوا مكرهين على الطاعة وليس لهم شيء من حرية الارادة وشتان بين الفريقين . خامساً كانت رماح الفرس قصيرة لا تصل الى اليونان وان وصلت تلقاها هؤلاء بالدروع والمجان المتينة التي ترد الطعنات خائبة بخلاف رماح اليونان

فانها كانت تصل الى مقاتل الفرس ولا تردها عنها مجانهم لانها سخيفة تخترقها الطعنات النجلاء . سادساً ان تدريب اليونانيّ على القتال منذ اشتداد ساعده امر لم يألفهُ كثيرون من تباع الفرس . سابعاً كان الفرس في موقف لا يستطيعون منهُ ان يستطلعوا حال اليونان بخلاف هؤلاء فانهم كانوا على علم بحركات اعدائهم ومكناتهم . ثامناً ان كثافة جيش الفرس كانت احدى بلاياهم بخلاف قلة اليونان وسرعة حركاتهم فانها مكنت قادتهم من ترتيبهم على ما احبوا

ولقد أدهش الناس لاضراب المؤرخين الاول عن ذكر خيل الفرس في هذه الموقعة مع انها ذكرت قبل التلاحم . اعتبر ذلك بما ورد من ان هيبيا س الخائن اختار سهل ماراثون واشار به لان مسرح الفوارس فيهِ فسيح ولكن ملتيادس رد كيدهم في نحورهم اذ جعل رجالتهُ صفاً من السجفة الواحدة الى الاخرى فلم يبقَ من مجال للخيل لانها لا تقوى على مهاجمة الرجالة اذا كانوا صفاً لا تبرز عن مساواتهِ الاَّ الاسل وكفى بها مانعاً

ولقد عظم الكتبة شأن هذه الواقعة الهائلة ليس لانها قطعت عدال الحرب بين الفرس واليونان بل لانها اوقفت تيار الفرس عن اقتحام اليونانية ومحق استقلالها ومعالم مجدها ومحو تمدنها المحسوب جرثومةً لتمدن الحالي . نعم ان الفرس لم ينقطعوا للانكسار ولم يقعدوا عن طلب الثأر ولكنهم علموا والعالم اجمع ان المنعة والعصمة لا تخلدان لقوم وان المجد والسؤدد يقومان في غير عصبتهم ايضاً وان ما ارادوهُ من اخضاع اليونان لهم ليس بالامر اليسير وكفى بالدهر مؤدباً

تمثال هكسلي

العلم مطلوب لذاتهِ ولا يخطر على بال عالم يبحث في نواميس الطبيعة ويصل الليل بالنهار درساً وتنقيباً انهُ يفعل ذلك لكي يُقام لهُ تمثال او يُرفع لهُ نصب . ولكن اذا رأى ابناؤنا تماثيل العلماء والفضلاء قائمة بازاء تماثيل الملوك والعظماء زادوا رغبةً في العلم وتطلباً للفضائل ولذلك ترى البلدان الراقية مراقي الفلاح تكرم علماءها بعد مماتهم كما تكرم وزراءها وتقدر المرء بما نفع بهِ بلادهُ وابقى فيها من المآثر واما البلدان التي تقضي عليها بالانحطاط فلا يشاد فيها تذكار الاَّ لمن عاش عيشة الكسل وعلم الناس التوكل والخمول وهذا من جملة الفروق بيننا وبين غيرنا من الاوربيين

يعلم قرّاء المقتطف مقام هكسلي بين رجال العلم فانهُ العالم الطبيعي الذي نصر مذهب دارون بقلمهِ ولسانهِ ووسّع علم التشريح والبيولوجيا وبحث وحقّق في مواضيع كثيرة علميّة وادبيّة